فهي تابعة لها(١٥) ولا تتحقق المعاني على نحو مايريده المتكلم الا بأن يضع الالفاظ على نسق مخصوص . ويبدو ان الجرجاني ـ هنا يتجاوب مع الجاحظ وقوله « انما الشعر صناعة وضرب من التصوير » على ان يفهم من لفظة « التصوير » هنا كما يرى الجرجاني ـ الاسلوب والنظم والتركيب الذي يميز نصا من اخر . لم يرد الجاحظ في مقالته هذه غير الشكل الذي يعرض فيه الكلام . ومن اجل ان ينفي الجرجاني عن نفسه تهمة سوء فهم قول الجاحظ . وربما كان يعرض تفسيرا اخر لمقولته . يقول الجرجاني في نص مهم له مامعناه ان البينونة (اي الفرق) بين احاد الاجناس تكون من جهة الصورة . ونحن نميز انسانا من اخر او فرسا من فرس بخصوصية تكون في صورة هذا ولا تكون في صورة ذاك . ويطبق الجرجاني هذا على الشعر فيقول (ثم وجدنا بين المعنى في احد البيتين وبينه في الاخر بينونة في عقولنا وفرقا عبرنا عن ذلك الفرق وتلك البينونة بأن قلنا « للمعنى في هذا صورة غير صورته في ذلك » وليس العبارة عن ذلك بالصورة شيئا نحن ابتكرنا فينكره منكر بل هو مستعمل مشهور من كلام العلماء ويكفيك قول الجاحظ . وانما الشعر صياغة وضرب من التصوير(١٦)

نظم الحروف ونظم الكلمات :

ويكرر الجرجاني دائما انه اذا تغير النظم فلابد حينئذ ان يتغير المعنى(١٧) . ان المعنى المطلوب تجسيده نابع من فكر المتكلم ويتحقق بارادته . فالنظم عملية ارادية واعية . وهو يختلف عن نظم الحروف في كلمات . فهذا نظم اعتباطي لا ارادة للمتكلم فيه . يقول « وذلك ان نظم الحروف هو تواليها في النطق . وليس نظمها بمقتضى عن معنى . ولا الناظم لها بمقتضى في ذلك رسما من العقل اقتضى ان يتحرى نظمه لها لما تحرّاه . فلو ان واضع اللغة كان قد قال (ربض) مكان (ضرب) لما كان في ذلك مايؤدي الى فساد . واما نظم الكلمة فليس الامر فيه كذلك لانك تقتفي في نظمها آثار المعاني وترتبها على حسب ترتيب المعاني في النص . فهو اذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض . وليس هو النظم

---

(١٥) المصدر السابق ـ ٥٢

(١٦) الدلائل ٥٠٨ هذا خلاف مايراه معظم الدارسين من ان لفظة (التصوير) في عبارة الجاحظ تشير الى الصورة بدلالتها المعاصرة . وهذا وهم وقع فيه الكثيرون .

(١٧) السابق ٢٦٥

الذي معناه ضم الشيء الى الشيء كيف جاء واتفق . ولذلك كان عندهم نظيرا للنسج والتأليف والصياغة والبناء والوشي والتحبير وما اشبه ذلك مما يوجب اعتبار الاجزاء بعضها مع بعض حتى يكون لوضع كل حيث وضع علة تقتضي كونه هناك . وحتى لو وضع في مكان غيره لم يصح(١٨)

وعلى هذا لاقيمة للالفاظ مفردة لان ليس للمتكلم ان يتصرف في معناها او في نظم حروفها والامر ان هنا اعتباطان . ودور المتكلم يكمن في اختيار اللفظ وتوزيعها على وفق نسق معين يقتضيه ويوجبه المعنى المطلوب التعبير عنه فاذا قلنا مثلا (ضرب زيد) فالذي يعود الى المتكلم هو اثبات الضرب لزيد اولا ثم اثبات هذا الضرب في زمن مضى وليس اثبات دلالة . الضرب على لفظة (ضرب) او وصف حروفها على نحو ما هي عليه .(١٩)

والجرجاني على حق بمقدار ما يتعلق الامر بارادة المتكلم التي تنظم الكلمات على وفق المعنى وهو لايريد غير تأكيد ان النظم ملكة انسانية وليست الموازنة بين الطبيعة الاعتباطية (للالفاظ) والطبيعة الارادية (للنظم) مما يدعو الى ان نغمط حق اللفظة مفردة . فالنظم لايقوم الا بالالفاظ . كما لايقوم المدماك الا بالحجارة . ان نظم الكلام كما يرى علم اللغة المعاصر لايقوم الا على مبدأي (الاختيار) و (التوزيع) . فالمتكلم يختار من مجموعة الفاظ اللغة ماينا سب المقام ثم يوزع هذه الالفاظ على وفق مايقتضيه المعنى . ومن هنا يبدو ان (مبدأ الاختيار ينصب على الالفاظ اما مبدأ التوزيع فعلى النظم .

وقد يبدو ان الجرجاني يرى ان الفكر الانساني لايتم الا في اطار العلاقات السياقية بين الالفاظ . اذ لايمكن ان يتعلق الفكر الانساني بمعنى اللفظة مجردة عن معاني النحو اي (العلاقات) فهل يتصور ان يفكر انسان بمعنى (فعل) من غير ان يريد اعماله في اسم او ان يفكر في اسم من غير اعمال فعل فيه(٢٠) . فالانسان في ضوء هذا التصور لايفكر الا بجمل او لايفكر الا نظما .

---

(١٨) الدلائل ٤٩

(١٩) الاسرار ٣٧٦ / ٣٧٨ (رتز) عن نظرية اللغة ١١٤

(٢٠) الدلائل ٤١٠ ، ٤١٢

ولسنا نسوق القول جزافا . فالجرجاني نفسه يرى ان معاني الكلام كلها لا يمكن ان نتصورها الا بين شيئين ، وأساس هذه العلاقة بينهما والاصل هو الخبر(٢١) ومن الثابت والمعقول انه لايكون خبر حتى يكون مخبر عنه ومخبر به . وهذا الخبر ينقسم الى اثبات ونفي والاثبات يقتضي مثبتا ومثبت له .. والنفي يقتضي منفيا ومنفيا عنه .. ولو حاولت ان تتصور اثبات معنى او نفيه من غير ان يكون هناك مثبت له ومنفي عنه حاولت مالا يصح في عقل ولا يقع في وهم .(٢٢)

انواع العلاقات في الخبر

وقد فصل الجرجاني في الخبر وكونه اصل المعاني وانه لايقوم الا بين شيئين ، فقال « ومعلوم ان الفكر من الانسان يكون في ان يخبر عن شيء بشيء او ان يصف شيئا بشيء ، او ان يضيف شيئا الى شيء او ان يشرك شيئا في حكم شيء ، او ان يخرج شيئا من حكم شيء او ان يجعل وجود شيء شرطا في وجود شيء آخر . وهذا كله امور معقولة زائدة عن اللفظ(٢٣)وتأمل قوله « زائدة عن اللفظ » لان مثل هذه المعاني الاخبار والشرط والنفي والاستثناء ... الخ لاتحصل باللفظ وحده وانما بشيء زائد عن اللفظ . وهذه الزيادة ليست اكثر من العلاقات التي يقيمها المتكلم بين الالفاظ والمعنى الذي ينشأ من ذلك ، اذ لاتقوم اضافة او وصف او اشراك الا اذا اقمت صلة بين لفظ وثان .

والاشراك بين هذين اللفظين هو مايسمى بالاسناد الذي هو اصل المعاني وعماد الكلام ولانه اصل وعماد اخذ الرفع علاقة له لانها ارفع مراتب الاعراب(٢٤)

ولا يستثني الجرجاني المجاز من فكرة العلاقات . فاللفظة لاتكون مجازا بنفسها عندما تنقل من معناها الحقيقي الى معنى مجازيّ ، فالمعنى المجازي الجديد لايكون الا في سياق ، يقول « أن في الاستعارة مالا يمكن بيانه الا من بعد العلم بالنظم والوقف على حقيقته »(٢٥) . وليس الامر في قوله تعالى (واشتعل الرأس

---

(٢١) المقصود بالخبر عند الجرجاني ، كما يبدو ، الاسناد المعروف عند النحويين وليس المقصود به الخبر عند البلاغيين . والمراد به الكلام الذي يحتمل الصدق والكذب ، او الكلام الذي له نسبة في الخارج تصدقه اولا تصدقه وبخلافه الانشاء .

(٢٢) الدلائل ٥٤١

(٢٣) الدلائل ٤١٦

(٢٤) د . عبد الستار الجواري ، نحو المعاني (بغداد ١٩٨٧) ٣٧

(٢٥) الدلائل ٢٠٠

شيبا) ان الاستعارة في (اشتعل) التي نقلت من معناها الحقيقي الى معنى مجازي وانما في كون الانتقال قد اسند الى الشيب(٢٦) . وقد ترتب على هذا معنى لم يكن للفظة اشتعل سابقا . وعلى هذا فالمجاز وان كان ظاهرة قائمة في اللفظ الا انه في الحقيقة في المعنى الذي هو النظم . يقول « والحكم من الاستعارة هي وان كانت في ظاهرة المعاملة من صفة اللفظ . فأن الامر الى ان القصد بها الى المعنى(٢٧) وكذلك الامر في صور البديع .(٢٨)

النظم ومستويات الكلام

النظم الذي يدور عليه فكر الجرجاني النحوي والبلاغي والنقدي عرفه بالقول « اعلم ان ليس النظم الا ان تضع كلامك الموضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه واصوله وتعرف مناهجه .(٢٩)

ويقول ايضا في موضع سابق « معلوم ان ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض .(٣٠)

وبهذا ربط عبد القاهر كما يبدو فكرة النظم بالنحو فكان النحو عنده ليس كما يرى الجمهور . علم اواخر الكلمات وانما علم تعليق الكلم بعضها ببعض وقد دفع هذا بعض الباحثين المعاصرين الى تلمس مفهوم الجرجاني عن النحو . اهو العلم الذي يبحث كما اشرنا قبل قليل ـ في اواخر الكلمات ـ وفي مسألة الخطأ والصواب . ام انه العلم الذي يبحث في طرق التعبير عن المعنى عبر شبكة العلاقات التي يسعى الى اقامتها المتكلم ويسمونه (نحو المعاني)(٣١) .

يشير الجرجاني مرة الى (اصول النحو(٣٢) ومرة الى علم (النحو)(٣٣) ويعتقد باحث معاصر الى ان المراد بأصول النحو قواعد اللغة الاساسية التي بموجبها يثبت

---

(٢٦) السابق

(٢٧) السابق

(٢٨) اثر النحاة في البحث البلاغي ٣٩١ وما بعدها . وانظر في تحليل الاية الكريمة د . عبد الله درويش (نظرية النظم عند عبد القاهر) القاهرة ١٩٦ ، ص ٦٣

(٢٩) الدلائل ٨١

(٣٠) السابق ٥٥

(٣١) الدلائل ٤

(٣٢) السابق ٣

(٣٣) السابق .

الصواب للغة والكلام ويعلم النحو النظم نفسه . او الخصائص التي تجعل من الكلام نصا ادبيارفيعا(٣٤) وعلى هذا فالجرجاني يميز بين النص على مستوى الخطأ والصواب . والنص على المستوى الادبي ومضى المعاصرون الى القول ان عبد القاهر كان على وعي تام بالفوارق بين (اللغة) و (الكلام) ذلك الفرق الذي اشار اليه اول مرة العالم السويسري فردناند دي سوسير وطوره الدارسون اللاحقون عليه واطلقوا عليه مرة مصطلح (الكفاءة و (الانجاز) ومرة (النظام) و (النص) او (القاعدة) و (الرسالة)(٣٥) ويريدون بالمصطلح الاول (اللغة او الكفاءة او النظام او القواعد) قواعد اللغة التي يلتزم بها المنشؤون والكاتبون بقواعد اللغة العربية مثلا ويريدون بالثاني (القول او الانجاز او النص او الرسالة) اي نص ادبي متحقق على وفق قواعد اللغة التي يكتب فيها المنشيء قصيدة لابي تمام او للمتنبي أو نص لطه حسين على سبيل المثال . فالجرجاني على وفق هذا التصور كان يدرك ان (اصول النحو معينة بالقواعد الاساسية . اما (علم النحو فهو النظم نفسه ولذلك قال « وليس النظم الا ان تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو(٣٦) فكأن النظم هو التحقق الفعلي للغة . فأصول النحو هي النظم بالقوة . اما علم النحو فهو النظم بالفعل كما يقول المناطقة .

ولا يختلف في هذا باحث ثان اذ يرى عبد القاهر ينظر الى عملية الابداع على انها تمر بمرحلتين . تتمثل المرحلة الاولى في مرحلة الخطأ والصواب . والاخرى تتعدى هذه المرحلة التي مناط الفضيلة والمزية(٣٧)

ويمضي الباحث الى القول ان الجرجاني بهذا المفهوم يتعامل مع النحو على المستوى السطحي والمستوى العميق . وهو منهج من ينتمون الى نظرية النحو التوليدي التي ترى ان للغة مستويين . سطحي وعميق . فالبنية اللغوية العميقة هي الصورة المثالية الكاملة للجملة كما ترسمها قواعد النحو . وهي صورة افتراضية . اما البنية الظاهرة فهي الشكل الواقعي الملموس للتركيب . وهي بلا شك مستمدة من البنية العميقة التي يسميها عبد القاهر (اوضاع اللغة) او اصول النحو كما مربنا . وهي مرحلة تخلو من البراعة الفنية التي لاتتحقق الا في المستوى الظاهري للتركيب وهو مستوى التأليف والعلاقات . اي يكلمة اخرى مستوى النظم .(٣٨)

---

(٣٤) مفهوم النظرية . عبد القاهر . مجلة فصول ديسمبر ١٩٨٤ . ١٥

(٣٥) المصدر السابق وانظر د . عبد السلام المسدى (الاسلوبية والاسلوب) تونس ١٩٨٤ ٣٩ .

(٣٦) الدلائل ٨١

(٣٧) د . محمد عبد المطلب . البلاغة والاسلوبية (القاهرة ١٩٨٤) ٤٩

(٣٨) السابق ٤٩ ـ ٥٠

نظرية النظم في ضوء هذا التصور هي نظرية في تحليل العلاقات القائمة في الاسلوب الادبي المتميز . وقد لاحظنا ان (المزية والفضل في اي اسلوب تابع من طريقة التركيب او التأليف) اي من العلاقات التي يقيمها الكاتب بين الفاظه . وما ينجم عن هذا التأليف من تقديم او تأخير او فصل او وصل او قصر او اختصاص او توكيد ... الخ .

وهذه الامكانات ذات طبيعة اختيارية ولذلك يتميز كاتب من اخر بأسلوب وطريقة نظمه فيرتفع اسلوب ويسف اخر . فمن الواضح ان الكاتب لايستطيع ان يتصرف في قواعد اللغة . لان طبيعتها الزامية . اما قواعد التركيب والنظم فحرية التصرف للكاتب لامتناهية . والنظم والتركيب يخضع لبراعة الكاتب وفنه . اذ للمبدع ان يقدم فنه بطرق مختلفة من الوضوح والغموض او الزيادة او النقصان . وهذه امور تتجسد على مستوى الصياغة الملموسة بالتقديم او التأخير او الحذف والذكر او التعريف او التنكير وهذه الفروق المختلفة في تقديم المعنى يسميها الجرجاني (الاسلوب) فهو « الضرب من النظم والطريقة فيه »(٤٠) . وفي هذا يكن تفرد الاسلوب . يقول (اعلم انا اذا اضفنا الشعر او غير الشعر من ضروب الكلام الى قائله لم تكن اضافتنا له من حيث هو كلم واوضاع لغة . ولكن من حيث توخي فيها النظم(٤١) . لان الاضافة اختصاص . واضافة الشيء لصاحبه اختصاص به ولايكون للشاعر او الاديب اختصاص بالالفاظ وحدها او باوضاع اللغة . انما بالعلاقات التي يختارها لينظم الالفاظ . فكما ان الحلي لاتختص بالصائغ من حيث كونها ذهبا او فضة . ولكن من جهة العمل والصنعة كذلك الشاعر .(٤٢)

والعلاقات التي يصنعها الكاتب لاتكون حتى يكون هناك قصد الى صورة معينة ان لم يقدم فيها ماقدم او يؤخر فيها ما اخر لم تحصل تلك الصورة .(٤٣) هناك اذن هدف . وهناك طريق يوصل اليه . وبكلمات هناك (قصد) وهناك (نظم) يحقق ذلك القصد . والقصد الذي يريده الجرجاني لايستهدف الايصال فقط . فهذه مهمة الكلام الاعتيادي الغفل عن المزية والفضل اللذين لانجدهما الا في الكلام الادبي .

---

(٣٩) الحو بين القاهر وتشومسكي (مجلة فصول ديسمبر ١٩٨٤) ٣١

(٤٠) الدلائل ٤٦٨

(٤١) السابق ٣٦٢

(٤٢) السابق

(٤٣) السابق ٣٦٤

ولذلك سعى الجرجاني الى تحليل الكثير من الايات القرآنية والنصوص الشعرية لبيان مافيها من مزية وفضل، وطرق تحقيق ذلك. الامر الذي قاده الى الحديث عن جملة اساليب العربية في الكلام كالتقديم والتأخير الذي هو باب كثير الفوائد حجم المحاسن واسع التصرف، بعيد الغاية. لايزال يفتر لك عن بديعة ويفضي بك الى لطيفة. ولا تزال ترى شعرا يروقك مسمعه ويلطف اليك موقعه ثم تنظر فتجد سبباً ان راقك ولطف عندك ان قدم فيه شيء وحول اللفظ عن مكان الى مكان(٤٤) ذلك ان معرفة (الحذف والتكرار) و (والاظهار والاضمار) و (الفصل والوصل) مهمة لمعرفة اساليب البلاغة فاذا كانت هذه امورأهينة وكان المدى فيها قريبا والجد يسيراً من اين كان نظم اشرف من نظم ؟ وبم عظم التفاوت واشتد التباين وترقى الامر الى الاعجاز .(٤٥)

السرقات الشعرية

لقد اتاحت نظرية النظم على نحو ماشرحناه للجرجاني ان يعض فهما لموضوع السرقات وقد مر بك طرف مما كان النقاد العرب يرونه في هذا . ونعتقد ان للجرجاني تصورا مختلفا وجديراً بالتأمل .

ان اختلاف (صورة) الكلام او اسلوبه او نظمه لابد ان يقود الى اختلاف في المعنى مثل اختلاف الناس بعضهم عن بعض بسبب اشكالهم وصورهم .

ان النتيجة المنطقية لمفهوم (النظم) لابد ان يقود الى التصور الاتي (اختلاف الصورة يكون سببا في اختلاف المعنى والعكس صحيح ايضا) ولقد طبق الجرجاني هذا التصور على السرقات وتجنب من امر العلماء الذين يتحدثون عن (الاخذ) و (السرقة) او يتحدثون عن « اخذ معنى عاريافكساه لفظا من عنده كان احق به) وما الى ذلك . ثم لايتساءلون من اين يتصور ان يكون ههنا معنى عار من لفظ يدل عليه . ويمضي الجرجاني الى القول .. كيف لنا ان نتصور ان واحدا احق بالمعنى من اخر اذا لم يحدث في الكلام او المعنى صفة او فضيلة ؟ فاذا صح هذا . فليس معنى قولهم كساه لفظا من عنده . غير انه احدث في المعنى صورة جديدة

---

(٤٤) السابق ١٠٦

(٤٥) السابق ١٠٩

تغير المعنى(٤٦) ويشير في موضوع اخر الى انه لايتصور ان تكون صورة المعنى في احد الكلاميين او البيتين مثل صورته في الاخر البته . اللهم الا ان يعمد عامد الى بيت فيضع مكان كل لفظة منه لفظا في معناه . ولا يعرض لنظمه وتأليفه مثل ان يقول في بيت حطيئة :

دع المكارم لاترحل لبغيتها
واقعد فأنك انت الطاعم الكاس
ذر المفاخر لاتذهب لمطلبها
واجلس فأنك انت الاكل اللابس

ذاك لان بيت الحطيئة لم يكن كلاما وشعرا من اجل معاني الالفاظ المفردة التي تراها فيه مجردة معراة من معاني النظم والتأليف . فالذي يجيء فلا يغير شيئا من هذا الذي كان كلاما وشعرا لايكون قداتى بكلام ثان وعبارة ثانية . بل لايكون قد قال من عند نفسه شيئاً البته)(٤٧) وهذا يعني ان الشعر يكون كذلك بسبب نظمه وتأليفه لا بسبب الفاظه . والا لكان البيت الثاني الذي لايختلف عن الاول في النظم والتأليف كلاما ثانيا . وهو ليس كذلك ويستنتج من ذلك انه اذا تغير النظم والتأليف فقد تغير المعنى . وليس ثمة سرقة او اخذ بل ان مجرد قول النقاد عن تماثل المعاني (انه اخذ المعنى من صاحبه فاحسن وجاد) وقولهم (انه اساء وقصر) دليل على ان المعنى لم يأت هو نفسه والا لم يكن لقوليهما معنى ابدا . فأن (احسن) و (اجاد)و (قصر) لايعني غير ان الثاني جاء بالمعنى في صورة مختلفة وفي قول النقاد في شاعر ما (انه اخذ المعنى فظهر اخذه) . وفي اخر (انه اخذه فاخفى اخذه) دليل اخر على اختلاف النظم والصورة والتأليف . ولو كان المعنى هو نفسه معادا على صورته وهيئته وكان الاخذ له لايصنع شيئا غير ان يبدل لفظا مكان لفظ . لكان الاخفاء محالا لان اللفظ لايخفي المعنى . وانما يخفيه اخراجه في صورة غير التي كان عليها(٤٨)

ويأخذ الجرجاني في تطبيق مهمة هذه السرقات على نصوص شعرية محاولا ان يبين اختلاف المعاني بسبب اختلاف الصياغة .(٤٩)

---

(٤٦) السابق ٤٨٣ ـ ٤٨٤
(٤٧) السابق ٤٨٧ ـ ٤٨٨
(٤٨) السابق ٥٠٩
(٤٩) السابق ٥٠٢ وما بعدها